تَعقُّب المُقدّس في مجتمع مابعد الحداثة(**)

ديفيد تريسي
ترجمة: هيثم فرحت(*)

ماذا حدث للآلهة أو للقوى الأساسيّة في مجتمع علماني مثل أستراليا المعاصرة؟ هل لاقوا «حتفهم» أو اختفوا أو أصبحوا بلا نفع؟ هل هُم، كما يُحبّذ العقلانيّون، «ذوو نفع» لأولئك الذين يرغبون في الإيمان بهم فقط؟ شغلتني هذه المشكلة لسنواتٍ عديدة، خصوصاً منذ خروجي من مرحلة «التنوير الزائف» للطور الإلحادي والعقلاني إلى مرحلة بلوغي المُبكرة. من الواضح أنّه ليس هناك علاقة بين كون المجتمع لطيفاً وبدون لون أو هويّة وبين غياب الدّين. بالأحرى، يُصبح المجتمع عبارة عن سخرية شيطانيّة من الحقيقة المقدّسة عندما يتوقّف عن الاعتراف بالمصادر الإلهية التي يستمد حياته منها.

يُمكن إنكار ورفض الآلهة، ولكن لا يمكن إخمادها، فهي تتناول اللاشعور، حيث تُشكّل مصادر قلقٍ نفسيّة واجتماعية. لم يَعُد يعترف علماء اللاهوت ورجال الدين بمصادر القلق هذه، باستثناء الأطباء وأطباء الأمراض العقلية والأطباء النفسيين والشعراء، فالآلهة تُضَخّم الطموحات والرغبات البشرية وتربط نفسها بالأنا دون معرفة الأخيرة أبداً. عندما تتيه الروح في اللاّشعور، ودون أي عونٍ ثقافي أو ديني تجاه أهدافها الخارقة، تُشوّه وتُفسد خِفيةً نشاطاتنا الإنسانية، حيث تُضفي عليها آمالاً رفيعة وفخمة لا يُمكن تحقيقها أو ترجمتها على المستوى الإنساني أو السياسي الاجتماعي.

تعلّمت أثناء دراستي الجامعية «فك التباس» و «استيعاب» العوالم الرمزية للثقافة الدينية والرمزية، وبتأثير أولئك الماديين الثقافيين ومُحطّمي الأوهام العظماء ـ ماركس

(*) أستاذ اللسانيات الإنكليزية.
(**) David Tracey: (1995) **Edge of the Sacred: Transformation in Australia.** Australia: Harper Collins.

(Marx) وفرويد (Freud) وَجَدتُ الأماني الصبيانية تكمن خلف مفاهيم الإله والألُوهة والهروب وراء الدافع الديني وزواج الأم الأوديبيّ (Oedipal) سعياً وراء الرغبة من أجل السعادة الفائقة. على أي حال، فكّرتُ منذ ذلك الحين أنه ينبغي علينا أن نعمل بشكل عكسي. علينا اليوم أن «نفهم» مشاكل ومصائب المجتمع العلماني ونبحث عن الآلهة أو النماذج المدفونة فيها. يُصوِّر ميرسيا إلياد Mircea Eliade هذه الحالة جيداً بطرحه أنه يجب أن:

نحاول القيام بعملية فك التباس عكسية: هذا يعني أن علينا أن «نفكّ التباس» العالم الظاهري الإلحاد... للكشف عن عناصره «المُقدّسة»، بالرغم من أنه، بالطبع «مقدّس» مهمل ومموه أو فقد أهميته[1].

تعود هذه الاستراتيجية الخاصة إلى ينغ Jung، لكن ليس جليّاً من نتاج إلياد فيما إذا توصّل إلى هذا الموقف بشكل مستقل أم تحت تأثير ينغ، فمهمة الحكمة المعاصرة، كما يراها ينغ، ليست في الانتقاص من الرمزية الدينية للماضي أو في «تفجير الأساطير» لعهد سابق، بل في تحديد وتعقّب واستيعاب الميزات المعاصرة وبقايا اللاشعور للمقدّس، والتي تستمر حتى في عهدها العلماني أو الإلحادي.

العناصر اللاإنسانية في التجربة الإنسانية

«بالطبع، الروح لا تموت، إنما تتحوّل إلى وحش» كريستوفر كوك Christopher Koch[2].

ندخل الحياة المعاصرة بأحلام مستحيلة، حيث نتوقّع أن يكون شركاؤنا وأصدقاؤنا وأقاربنا معصومين كالآلهة، أو نضع أصحاب الشهرة الإعلامية والشخصيات السياسية على المذابح السامية ونعتبرهم كمعبرٍ لجميع الآلهة في جنة علمانية. نتوخّى من هذا البرنامج السياسي أو تلك العلاقة الإنسانية أن تمنحنا الجنة والمدينة الفاضلة أو نظرة للنعمة الإلهية، ولا عجب أننا نسقط دوماً في مستنقع من القنط والكآبة، حيث نلعن الحياة لأنها خذلتنا من جديد. نحن مقتنعون تماماً باستلابنا اللاشعوري من قبل الآمال الدينية والرغبات الخارقة، لكن، وبعناد، لن نسمح لهذه الآمال والرغبات بمنفذ أو بهدف ديني، بل علينا دوماً أن نوجِّه هذه الرغبات باتجاه المسار الإنساني والمادي.

وبهذا ننشد أنواع البدائل السوقية كافة لغرض الاكتفاء الروحي، فالإدمان على المخدرات وظهور وباء المخدرات في هذا البلد والبلدان الأخرى تعبير لاشعوري ومحبط للحاجة إلى إيجاد تحرير مذهل من السجن للأنا المنفية. بالرغم من التزامنا الفكري

(1) Mircea Eliade: «Initiation and the Modern World», in **The Quest**, p. 162.

(2) Christopher Koch: **The Year of Living Dangerously**, London: Michael Joseph, 1988, p. 236.

بالأهداف العقلانية والأنانية، نشتهي لاشعورياً تجربة اللاذاتي والخارق التي تبرز من جديد في المخدرات بشكل تصنّعي لكل مدمّر. كذلك، ما يدعى بالثورة الجنسية لقرننا هذا هو تعبير لاشعوري للرغبة الأساسية للاتصال مع الآخر بطرق تحريرية مذهلة. ففي عالمنا العلماني، فقد الآخر (Other) بُعد حرفه الكبير (O) واصبح كائناً حياً وعاشقاً وصديقاً وزوجاً أو زوجة «أخرى»، أو، غالباً، الرجل أو المرأة «الأخرى» في حياتنا، طالما أن العلاقة غير الشرعية تحمل وقعاً نفسياً وأساسياً أكبر من الشريكة التي نرتبط بها رسمياً. يؤدي الارتباط مع الآخر إلى اتصالات جنسية محرمة مع الآخر المتكتم، أي إلى ذلك الجزء الذي ليس في عالمنا الشعوري. ندركُ بسهولة كيف أن الرغبة اللاشعورية للمقدّس تصبح معلنة كجنس عشوائي أو كسخرية شهوانية وشخصية لاتحاد النفس مع المقدس.

وبالاستعانة بالواجبات الأخلاقية للتأثير على الجنس، نرى أن الأخير ينهار أحياناً تحت وطأة الآمال. أحياناً، ينتقل الناس من العشوائية إلى الجمود أو الامتناع التام لأنهم لم يتمكنوا من إيجاد ما كانوا ينشدونه من الجنس، أو يتخلى بعض الناس عن الجنس الآخر ويتجهون إلى حب نفس جنسهم كنقلة باتجاه الانبعاث الروحي والولادة الجديدة. غالباً ما تشير أحلام هؤلاء الأشخاص إلى ضرورة انتقال شعورهم الشهواني من الإنساني إلى المقدس، حيث يمكن للأحلام أن تقدم رموزاً أساسية قوية تساهم في تحويل القدرة النفسية من مستوى إلى آخر. تكافح الأحلام لتقديم المساعدة لنا، لكن في أغلب الأحيان لا يمكننا سماعها أو فهمها بشكل لائق، خصوصاً إذا تم تفسيرها وفقاً للنظريات الجنسية المختزلة للتحليل النفسي السائد، حيث تبوء بالفشل محاولاتها العظيمة لخلق «رموز تحويلية» «تُفسَّر» معانيها عن طريق النظرة المادية للعقل.

إذا لم يستهونا الجنس والمخدرات أو أعطيا عكس النتائج المرجوة، فعلينا الأخذ بعين الاعتبار أنه سيكون هناك انغماس مفرط في الاستهلاك دوماً. نحن فارغون عاطفياً، لذلك نسعى لملء الفراغ بالسلع والأشياء المحسوسة والثياب والطعام والخدمات، وعندما تثير هذه الأمور الملل فينا، هنالك عناصر الرفاهية الكبرى والخدمات المكلفة للغاية، بالإضافة إلى الرحلات إلى أماكن غريبة سعياً وراء نظرة طفيفة لما يقبع خلف الحقيقة الرتيبة والأنا الدنيوية. ينشط المجتمع الاستهلاكي بقوة بوساطة المقدّس الذي فَقَد أهميته. حتى لو تحكم عقلنا التجاري المتّزن بهذا المجتمع بعناية، فالدافع الفطري الأساسي يبحث عن المزيد، والروح المدفونة فينا، والتي أضحت دافعاً تلقائياً أعمى، تعلم أن الحقيقة تمتلك أكثر مما نملك ونعرف مسبقاً، وبذلك نكون ملزمين داخلياً أن ننشد المزيد والمزيد على المستوى المادي. هذا لا يعني أن الأشياء المادية سيئة أو أن المال شرّ: هذا هو موقف الدين البيوريتاني (Puritanical) وما قبل علم النفس القديم الناكر للدنيا. على العكس، تُزيَّن الأشياء المادية والمال والمخدرات والجنس والعلاقات غالباً برغبات روحية غير لائقة ومضلّلة وبآمال أساسية غير إنسانية.

ونصل إلى المفارقة أننا ندنس ونشوّه العالم المادي في الوقت الذي نرتبط به لاشعورياً عن طرق التصور الروحي الملزم، ويثقل كاهل البدن بالطلب إليه القيام بحيل سحرية وتقديم إرضاءات إعجازية. المادة نفسها تعبير عن المقدس، لكن عندما نفصل أنفسنا عن المصدر المقدس، عندها تصبح المادة شيطانية. في المصطلح الديني التقليدي، تتدخل صورة الشيطان (Satan) الذي هو مجرد ملاك «مطرود هابط» ـ سخرية وتشويه هائلين للمقدس ـ في حياتنا وتتحكم بسلوكنا. أو من جديد وباللغة الدينية التقليدية (والتي لا يمكننا قراءتها بشكل رمزي): فإننا نتودد إلى الشيطان عن غير عمدٍ بنكران الإله. يصبح المقدس شيطانياً عندما يهبط إلى اللاشعور، حيث يولّد كافة أشكال الأعراض الجسدية النفسية والهواجس والدوافع غير العقلانية واضطرابات عقلية أخرى.

إلى أين وصلت الآلهة في العهود العلمانية والتنويرية؟ يجيب ينغ أن «الآلهة أصبحت أمراضاً»[3] وكونها سقطت من السماء، تظهر الآلهة من جديد في لاشعورنا وبانتقام مريع. تتلاعب القوى الخارقة بنفوسنا وأجسادنا مسبِّبة اضطراباً عصبياً وتدفعنا لتمثيل العمليات الرمزية بشكل حرفي غريب. بشكل سري، تسعى الآلة وراء خططها ومصالحها مخلفة المرض والتشويه للعالم الإنساني. عموماً، تسخر هذه العملية من الحرية المزعومة لشخصية الذات، فالثقافة الشعبية والسينما والخيال العلمي والتعابير الجمالية الأخرى مليئة بالصور البلاغية والقصص التي تشير، بالرغم مما نفكّر، إلى أن مجتمعنا العلماني وأدمغتنا العقلانية منسجمة تماماً ومستلبة فعلاً عن طريق الأشكال والمضامين الأساسية. في أفلام وروايات لا تحصى، يطرح «الآخر» نفسه كشيء غريب وقديم وغير اعتيادي، وبالتالي يصرّ ذلك الآخر على إثبات وجوده بالعدو بشكل هائج عبر المناطق الآمنة لعالمنا الإنساني المحدود. تُعد طاقة الدخلاء الغريبين أكثر رهبة واستقلالية بسبب فشلنا في فهم علاقتنا بهم، فنحن نمنح الآلهة والشياطين وبشكل ساخر سيطرة أكبر علينا وذلك بالتبرّء منهم.

النكران المعاصر والبحث عن الحرية

في العهود القديمة، اتّسم وضعنا بالغطرسة والعجرفة أو الغرور. عندما تنسى أو تنكر الإنسانية الآلهة بشكل مقصود وتعتبر نفسها الإله نفسه ويمكنها العيش والوجود دون الآلهة، فإنها تنساق للغطرسة، وبحكم الظروف، عليها التعامل مع عقاب وانتقام الآلهة، فالغطرسة إثم أخلاقي مخيف في العالم القديم، وبذلك برزت التراجيديا الإغريقية من الحاجة لمنح الغطرسة صبغة جمالية وعلنية، فالأبطال التراجيديون هم أولئك الذين يكافحون بضراوة ويتخطّون الحدود البشرية ويتجاوزون حدودهم والحدود البشرية،

(3) Jung: Commenting on the Secret of the Golden Flower (1929), CW 13, para. 54.

ويثيرون بذلك سقوطهم ويجلبون على أنفسهم عقاب الآلهة المريع، فالأمر الذي اعتبر يوماً أنه غضب وانتقام الآلهة، يمكن أن ينظر إليه اليوم كامتلاك أساسي وثورة نفسية ـ أفضل من آلهة حقيقية ونيران مقدسة تهاجمنا من السماء ـ وبإمكاننا الآن تصور وكلاء غير بشريين في النفس يحدثون دماراً وفوضى.

بالرغم من أن الأدب الكلاسيكي ملىء بالتحذيرات والإشارات حيال هذا الوضع وسبل التعامل معه أو تفاديه، لا نستفيد من هذه الحكمة الثقافية لفشلنا في تقدير مدى ارتباطها بنا اليوم. بالنسبة لنا، لا يُعدّ وضعنا غطرسة كلاسيكية، إنما «تنوير فكري». نتصور أنفسنا منطلقين بحرية ومستقلين وغير مقيدين، أفضل من كوننا مستلبين ومستعبدين من قبل القوى الأساسية. نخلط بين «هوس» و «غضب» الآلهة وطاقاتنا العليا وشهوتنا الجنسية العارمة. لدينا أيضاً مصطلحاتنا واستيعابنا العلماني العقلاني حيال الجنون الذي أصابنا: أي القلق والضغط والاضطراب العصبي والتوتّر والسرعة في الحياة المعاصرة. لكن، عندما تتخذ قوى الآلهة المجنونة مجراها، ترمينا ببساطة في حفرة الكآبة، حيث ندرك فجأة ضعف طاقتنا الشخصية والمصادر البشرية التي نمتلكها بالفعل، وعند ذلك نقول: آه! تلك هي الحياة ـ أي تقلبات الحياة.

تكمن غلطتنا الروحية العظمى في أننا لم نخمّن أن الآخر يمكن أن يكون مرتبطاً بسلسلة الكآبة الجنونية، كما يسرنا أن ندعوه، وندرك أننا نعاني من أمراض حقيقية يُعتقد انها الثمن المنطقي للعيش في عالم سريع. ما زلنا نحتفظ بالاعتقاد المتفائل القديم القائل بأنه سيتم تجاوز مشاكلنا العصبية ودورات الجنون عن طريق العلم والطب ونحن نشق طريقنا باتجاه جنّة المعرفة الكاملة، لكن نموذج معرفتنا ناقص لأنه لا يفسح مجالاً للحكمة المتعلقة بالحقيقة المطلقة وبالعلاقة السليمة بين الإنساني والمقدّس.

في صناعة الكتابة الأسترالية، هناك تعبير لافت للنظر لما أصفه في رواية باتريك وايت Patrick White **الماندالا**(*) **المجسّمة** **The Solid Mandala** (1966):

بعد تقاعده، يتذكر والدي أحياناً، وباسلوب التعبير المتقطع المرافق للربو، هروبه ـ عن طريق التنوير الفكري ورحلته إلى استراليا ـ من الأمر الذي هدّد بديمومة الأسود والبنّي، لكن، مما هو ظاهر، سيصبح جاهلاً أكثر مما هو متنوراً، وتنفسه أثقل، ومثقلاً بالشك المتكرر بانه ما زال مقيداً[4].

في هذا المقطع هنالك علاقة ملحوظة بين «التنوير الفكري» والرحلة إلى استراليا، حيث يعتبر كلاهما هروباً من عوائق الماضي وسبيلاً لتجاوز العقلية الدينية والتقاليد المرهِقة، ويصبح القاصّ في «ظاهر» قصة الهروب والحرية هذه «جاهلاً أكثر مما هو

(*) رمز الكون عند الهنود والبوذيين وبخاصة: دائرة تطوِّق مربعاً وعلى كل من جانبيها رسم إله.

(4) Patrick White: **The Solid Mandala (1966)**, Melbourne: Penguin Books, 1977, p. 145.

متنوراً، ويثقل تنفسه، ويصبح مثقلاً بالشك المتكرر بأنه ما زال مقيداً». ببساطة، يُحدِث النكران العقلاني للمقدّس شكلاً مروعاً وكئيباً للعبودية لأنها عبودية «لاشعورية» ومجهولة بالنسبة للقوى الأساسية، فهذه العبودية اللاشعورية ضارة بسلامة الأنا ومهددة للحياة، كما هو مبين في الوصف الخارق والمقتضب لورطة جورج براون (George Brown) الذي أُطلق سراحه من الأولد كنتري (Old Country)، حيث كان يعاني بصمت من توعك روحي. ربما كان ميرسيا إلياد يتحدث عن أمثال جورج براون في هذا العالم عندما كتب التالي: «يُكوِّن الرجل المعاصر نفسه عن طريق سلسلة من النكران والرفض، لكن تلاحقه باستمرار الحقائق التي رفضها أو أنكرها»[5].

إن تاريخ الحداثة والمئة عام الماضية هو تاريخ صراع الأنا من أجل الاستقلالية والحرية المطلقة، فنهضة الحركة الإنسانية في عصر النهضة الأوروبية، وفيما بعد في حركة التنوير الفلسفية في القرن التاسع عشر، هي نهضة في رغبة الأنا بالتخلص من الماضي وخرافاته. تضافرت جهود الحركة الإنسانية والعلم والفكر لخلق عالم علماني يكون الإنسان فيه معياراً لكافة الأمور، وتفسَّر مادة وقوانين الكون فيه بشكل عقلاني، وتكون الإنسانية فيه سيداً على الكون. يكمن حلم حركة التنوير الفلسفية في الحرية، حيث بلورت هذه الحركة نفسها في الثورات السياسية والثقافية وفي التغيرات الجذرية للقيم الاجتماعية والأخلاقية وللعلوم والآداب الحديثة. تحققت إنجازات تحررية عديدة، ومنها المعارضة اللاهبة للتسلط في الكنيسة والدولة وفي المؤسسات العلمانية ومكان العمل، فقامت الحركة الإنسانية بالعديد من المعجزات الاجتماعية والسياسية، ونحن جميعاً في وضع «أفضل» بسببها.

لكن لسنا في حال «أحسن» بفضلها، لأنه بالرغم من إنجازاتها السياسية والاجتماعية، تركتنا الحركة الإنسانية فقراء ثقافياً ومفلسين روحياً[6] فالإله ميت، وتمّ التأكيد على أن القيم الأخلاقية والروحية نسبية تماماً ومصاغة اعتباطيّاً، فلا تجد النفس والروح عزاءً ولا زاداً، وراحت العلاقات الشعبية والأواصر التقليدية تضعف وتنهار، والفردية النرجسية متفشّية، وتجد الحضارة الغربية نفسها منزلقة بإصرار نحو الانحلال. بالتأكيد، تشفي الآلهة غليلها منا، ومن المحتمل أن تستمر في القيام بذلك إلى أن تعقد الحركة الإنسانية ميثاقاً جديداً معها. تكمن السخرية المروّعة في بداية الحركة الإنسانية في التطور الذي يمنحنا الحرية المطلقة والجنة الدنيوية. عوضاً عن ذلك، أصبحنا مُستعبَدين للأنا وللغرائز الدنيا ولكافة القوى الأساسية اللاشعورية التي تتخذ من أعماقنا سبيلاً وتتملكنا بسهولة.

---

(5) Mircea Eliade: **The Sacred and the Profane (1957)**, New York: Harcourt, Brace & World, 1977, p. 204.

(6) This argument is forcefully expressed in John Carroll, **Humanism: The Wreck of Western Culture**, London: Fontana, 1933.

علّمَت الديانات العظيمة مطوّلاً أنه لا يمكن للأنا أن تكون سيدة نفسها ولا يمكنها تحقيق الحرية المطلقة، فإذا حاولت تخطّي حدودها انحطت بسرعة وفقدت كمالها، فعلى حد القول الشائع: تصبح الأنا خادمة صالحة لكل سيدة خسيسة، فمهمة الأنا في النفس كمهمة الحركة الإنسانية في الكون وهي خدمة الحقيقة العظمى (ينغ) والاهتمام بمتطلبات الآخر (إلياد) وتعزيز تجسيد الإله في هذا العالم الغامض الوجود (هايدغر، Heidegger)، فإما أن «تختار» الأنا حياة الخدمة أو تلزم «بتأدية الخدمة» بطرق قسرية مدمِّرة ومتنوعة، حيث يكمن الخيار بين حرية نسبية أو لا حرية بتاتاً، ويبدو أنه ليس هناك خيار آخر أمامنا. توجد «حرية» في القرار الشعوري للأنا فقط وذلك لاختيار ما ينبغي القيام به. هذه هي المفارقة الرئيسة للعديد من الديانات، كما هو الحال في علم النفس الأساسي: «يمكن للفرد أن يصبح حراً فقط بدخوله الخدمة طواعية»، فالتزامي بالعبودية يعني سعادتي وقبولي بالعبودية للإله يعني حريتي، فبلغة التناقض الظاهري هذه، يحقق الفرد المعاصر درجة من الحرية فقط عندما يستنكر وهم الاستقلال التام ويقبل، تمشياً مع الحركة الإنسانية القديمة وما قبل المعاصِرة، بوجوده في علاقة مع الآخر ـ شرط أن يقوم الفرد بإرضاء وخدمة وتقدير الآخر. أشاطر كميل بيغليا Camille Peglia رأيها بأن التركيز المعاصر على الحرية مساء فهمه ومضلل، وبأن «الحرية فكرة معاصرة مبالغ في تقديرها كثيراً»[7]. تعني الحرية المطلقة فيما تعنيه بناء «أنا» ذات وجهة متسلطة تؤمن بإمكانية الحكم بمفردها في مقرّ الشخصية وفي العالم الخارجي.

في لغة المصطلحات الأساسية، الحركة الإنسانية العلمانية نتاج للأنا الفوضوية التي يحدِّد البطل الأبوي سبيلها أو نمطها في المجتمع الغربي، فالبطل مقيم حيوي وهام للنفس والمبدأ الذكوري الذي يجسده جوهري في نظام الأشياء، لكنه يميل مع ذكورته لسحق الأشياء والأطياف الأخرى في الروح، فلدى البطل استعداد ليكون ديكتاتورياً واستبدادياً فهدفه الأساسي تضخيم الأنا وإبادة المعارضة وتصوره للحرية هو ما نعاني منه جميعاً اليوم وما يهدد الآن استقرار وتركيبة الحضارة الغربية. بالنسبة للأنا، «الحرية» ترخيص يمنحها القدرة على القيام بما تشتهي والحرية للتمرد داخل النفس وخارجها دون أي اعتبار للآخر، ففي أساطير البطولة العديدة، ليس في اليونان القديمة فحسب، بل في علوم الكونيات الأسطورية الأخرى أيضاً، يجب وضع حد للبطل إما عن طريق الرجال والنساء أو الآلهة خشية أن يسبب دماراً شاملاً. يصبح التوأمان في مغامرات البطل الأسطوري لهنود الوينباغو (Winnebago) مغروران بقوتهما، وعندما يدفعهما حب السلطة لقتل واحد من الحيوانات الأربعة الذين يحملون الأرض يتم اعتقالهما وذبحهما في الحال. يُعقِّب جوزف هندرسن Joseph Henderson قائلاً: «يصبح

(7) Camille Paglia: **Sexual Personae,** London: Penguin, 1990, p. 39.

موت البطل الرمزي مؤشراً على تحقيق مستوى جديد من النضوج النفسي»[8].

التطور الثقافي عبر النسوي الأساسي

في المجتمعات الغربية المعاصرة، تحاول النسوية وعلم البيئة والإله الأعظم والعديد من الحركات الاجتماعية الأخرى تمهيد الطريق للموت الرمزي للبطل الأبوي، وبذلك تبنّي المستوى الجديد من النضوج النفسي الذي يتحدث عنه هندرسن، فعلم البيئة والنسوية متهمان أساسيان بعملية اعتقال الأنا البطولية الهاربة وبتعثر فلسفة طلاب المدارس القائمة على التوسع والتطور اللامحدودين. الاستغاثة الجديدة في أستراليا اليوم هي من أجل التطور الدائم، وينظر كل شخص متعلم بازدراء إلى العروض الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والشخصية للذكورة المهيمنة وللإفراط الأبوي، ويعاني الأب والبطل والذكر الأساسي من عار كبير ويجب إذلالهم. تكتنف هذه الثورة الثقافية عملاً سياسياً واجتماعياً، لكن يجب استيعاب أن الذكر والأب مبادىء أساسية للنفس البشرية، وأنه يجب تحررنا من هذه العناصر على المستويين النفسي والروحي، بالإضافة إلى المستويات السياسية والاجتماعية. كي تكون الثورة الاجتماعية فعّالة، يجب أن تحدث في الوقت نفسه على مسرحيّ الأحداث الداخلي والخارجي، ويتطلب تحرير النفس من البطل المخادع والمدمر تغيراً نفسياً عميقاً داخل النفس البشرية[9]. يمكن للنسوية وعلم البيئة أن يكونا عنصري تغيير على هذا المستوى الروحي العميق فقط عندما يدخلان عالم الأسطورة بشكل حقيقي ويتنبّهان للقوى الأساسية المقدسة التي يرتكزان عليها ويستمدّان قوتهما منها. يتم كبح البطل في أساطير عديدة، أو يستعاض عنه بالمبدأ النسوي الموجود في اللاشعور الذكري أو بالروح أو بالبعد النسوي للنفس. يمثّل المبدأ النسوي مبدأ الحب الجسدي - أي الدافع نحو الالتئام، بينما يمثل البطل العقل - أي الدافع نحو الانفصال، فعقيدة البطل تقوم على أساس «فرّق تسد»، بينما تقوم عقيدة الروح على أساس «صِل فقط». للروح مفهوم للحرية مختلف تماماً واستيعاب لتحقيق الذات مختلف عما هو عليه الأمر عند الأنا، فتجد الروح نفسها من خلال العلاقة والترابط - أي من خلال محاولة الوصول لما يتجاوزها. يكون تحرير الروح العالقة ضمن حدود النفس الشخصية بتخطّي البشري نحو المقدس الخارق وبوصل حقيقة الروح هذه بحقيقة روح العالم العظمى. تدرك الروح جيداً أنه يمكن تحقيق هذا التحرير عن طريق الارتباط بشيء أعظم فقط. أما في استراليا، فليس لدينا نماذج لهذه العملية الهامة في التحرير الروحي. لدينا نماذج وتصورات عن كيفية

(8) Joseph Henderson: «Ancient Myths and Modern Man», in C.G. Jung, ed., Man and His Symbols, New York: Doubleday, 1964.

(9) An excellent workd on this subject is Edward C. Whitmont, **Return of the Goddess,** New York: Crossroad, 1982.

الاندماج مع الأنا العقلانية، لكن عندما تصل الأمور إلى حد الهروب من ذلك السجن، تجد لدينا فقط تصورات سلبية أو ناقصة ـ مثل حب الانطواء والسكر وتعاطي المخدرات والانهيار العصبي. إن ما نفتقره بشدة هو نماذج ثقافية وإيجابية ودينية لتجاوز الأنا، وإلى أن توجد هذه النماذج، سيبتلي المجتمع الاسترالي بصيغ سلبية أو ناقصة للرغبة العارمة في الخروج من الأنا التي تسجننا.

تشير الأساطير أن الروح تتألق بفعالية في حال عاش البطل إلى ما بعد زوال فائدته أو في حال هددت قوته الجامحة حياة العالم. في تلك اللحظة، تبدأ قيم الحب الجسدي بالحلول مكان قيم العقل وتزيل قوة الارتباط التناقض وتحلّ معرفة الآخر (المعنى الحقيقي لكلمة «شعور»)[10] محل المعرفة الأنانية والشِّقاقية. يتحرك مجتمعنا في هذا الاتجاه بسبل هامة بالرغم من مقاطعة الثورة في البعد السياسي الاجتماعي إلى حد كبير، حيث لم يسمح لها أن تمثّل التغير الروحي والثقافي النفسي الذي ابتغته. من المحتم في مجتمع علماني حقيقي أن القوى التي ستحررنا من سجننا هي نفسها علمانية. ينبجس النسوي الأساسي من اللاشعور المتراكم وتولد النسوية. لكن في حال لم يسمح للإلاهة أن تولد من رذاذ ورغوة البحر الناجمة عن عضو الأب العجوز الذكري المبتور، نكون قد فوّتنا فرصة العمر الأسطورية. ينبجس إله الحب الأساسي من الأعماق أيضاً ويلد فجأة الوعي البيئي وفرضية «الإلاهة». لكن ما لم يسمح لعلم البيئة بتعزيز هذا الحب والسناء الرومانسي للكون المتناغم، لن نطيع الأوامر التي تمليها علينا روح العصر التعويضية.

ما وراء الإله الأب[11]

«على أي حال، الإله ميت في استراليا ـ حمداً لله»[12]. يجد فقط نيتشه (Nietzche) والمتهوّرون وبعض الاستراليين المشاكسين ارتياحاً وسعادة في الكارثة الميتافيزيقية للحقبة المعاصرة، لكن يبدو أن المهيمنين الأبويين القدماء انحسروا وأن الإله الأب ضعف أو «مات» وسيعاني كل شيء بُنِيَ حول نموذج الأب من عدم الاستقرار، حيث يُراد له أن يظهر نسبياً ومريباً. كتب ييتس (Yeats) في **الظهور الثاني The Second Coming**: «تنهار الأشياء ولا يستطيع المركز الصمود، حيث يتنبأ أن دورة الألفي سنة

(10) See Edward Edinger: **The Creation of Consciousness,** Toronto: Inner City Books, 1984.

(11) In my thinking on these matters, I have been greatly influenced by feminist theology, especially these works: Mary Daly, **Beyond God the Father,** Boston: Beacon Press, 1973; Mary Daly, **Gyn/Ecology,** Boston: Beacon Press, 1978; Rosemary Renther, **Sexism and God-Talk,** Boston: Beacon Press: 1983; Goan Chamberlain Englesman, **The Feminist Dimensions of the Divine,** Philadelphia: The Westminster Press, 1979.

(12) Patrick White: **The Vivisector,** London: Cape, 1970, p. 612.

من المسيحية على وشك النهاية وسيحلّ مكانها نظام مناقض لها». يتساءل ييتس: «أي وحش كاسر آن أوانه أخيراً لكي يمشي مترهّلاً باتجاه بيت لحم (Bethlhem) ليولد هناك؟»[13]. يجيب علم النفس التحليلي بأن الوحش الكاسر هو اللاشعور البدائي نفسه، حيث حرّضه على النشاط النظام الأبوي القديم، وهو الآن يتعزز في المجتمع والشعور. بالنسبة لييتس، يتمثّل النموذج الصاعد بأبي الهول (The Sphinx)، وهو شكل منبثق من ذاكرة الجنس البشري العالمية، له «جسم أسد» و «رأس رجل». بالكاد احتاج ييتس الذي اعتمد على حدسه لنظرية ينغ في التعويض الأساسي طالما توصّل بنفسه للفكرة عينها بلغة ليست نفسيّة بل شعريّة: «حضارتنا على وشك الانقلاب على نفسها، أو أن حضارة جديدة ما على وشك الولادة من كل ما رفضه عصرنا»[14].

أسطورياً، أبو الهول شكل أمومي - نسوي له ارتباطات قديمة بإلاهات الموت والانبعاث وأرض الأشباح، فهو صورة للآخر الغامض والبدائي والمتمرد. أبو الهول، إذن، هو ما ينشأ في «ذاكرة ييتس الكونية» بعد سقوط الأبوية والكنيسة والإله الأب. يفسر بعض الناس «الظهور الثاني» كنبوءة بيوم الحساب، أي إشارة إلى أننا متّجهون نحو مستقبل فوضوي يحكمه وحش كريه والمعادون للمسيح. على أي حال، يبدو لي أن هذا التفسير كئيب وحرفي. للوهلة الأولى، عندما يتحرر اللاشعور في النفس الجماعية أو الفردية، يقدّم نفسه باستمرار كشيء صاعق ومرعب. بعد الانكماش خوفاً من صورة أبي الهول، بإمكاننا التحقق، وبرغم كل شيء، من أنه خيالي ونفسي - جزء وحشي وجزء إنساني، فكل شيء نفسي قابل للتغيير، وأبو الهول ليس استثناء طالما أنه يجلب معه أو يرمز إلى حياة العالم الخيالي العامرة. أبو الهول مليء بالطاقات النفسية والقوى الوثنية والشهوة الجنسية الدنيوية، فالشعور البيوريتاني فقط يظهر أبو الهول كعدو للمسيح وكالشيطان. يُدرك إحساسنا الناضج حقيقة المظهر «الشيطاني» للخزان الهائل من الطاقة الغريزية الخام التي يحتويها أبو الهول. علينا التخلص من الأنا المدافعة عنه بصلابة، والتي تبني اللاشعور كآخر كريه أو محتقر وتسمح لأبي الهول أن يولد في مكان مقدس، حيث يقدم نفسه لشعورنا كآخر أساسي هام.

يمشي أبو الهول هذا بترهّل باتجاه بيت لحم ليولد هناك. تاريخياً، يُظهر المقدس نفسه في أقل الأماكن توقعاً. في المسيحية، يبرز نفسه في الأسطبل الوضيع. اعتقد أنه في العهود مابعد الصناعية ومابعد العقلانية ومابعد الأبوية هذه، يجب على المقدس أن يبرز نفسه بالضرورة في النسوي الأساسي وعبر ممالك الحيوان والنبات التي تتزعمها تقليدياً الإلاهة العظمى، فللعالم النسوي والطبيعة وهج من الأسطورة والسحر وكأن

(13) W.B. Yeats: «The Second Coming», (1920), **W.B. Yeats, Selected Poetry,** Harmondworth: Penguin, 1991, p. 124.

(14) W.B. Yeats: in the introduction to his play **The Resurrection,** (1935), quoted in A.W. Allison, ed., **The Norton Anthology of Poetry,** New York: W.W. Norton, 1983, p. 883.

فتحاً ومفاجأة أسطورية على وشك الحدوث. سيثبت أن ييتس على صواب: ستطلق كل القوى التي تعارض وتناقض المسيحية والعالم المسيحي ـ اليهودي، خصوصاً آلهة الطبيعة الوثنية والجنس والمادة والمقموعون وإلاهات الحياة النسوية والدورة الطبيعية والأرض والغريزة المعلقة مؤقتاً من قبل تقليد نموذج الأب المسيطر، ستطلق إلى داخل الشعور في السراء والضراء، وكما لاحظ ييتس بدهاء، يبشّر هذا الأمر بوجود وثنية وشرك جديدين[15]. من المتعارف عليه أن للميزات الأساسية للمجتمع المعاصر تعابير ملازمة للمسيحية ـ اليهودية: التعددية والتنوع وأفول الأبوية والبطولات الذكورية وإعتاق الجنس وتدمير السلطات المتمتّعة بقداسة القدم والأنماط الاجتماعية والعائلية المتعددة وفرض نسبية متطرفة للعادات والقيم والمواقف. ستنشأ الروحانية الجديدة من هذه الظواهر الاجتماعية المعاصرة مباشرة وستمثل وعياً نيِّراً للطاقة الأسطورية المرعبة الموجودة في صميم ما نقاسيه سلفاً على المستويين الاجتماعي والسياسي.

يتأرجح النواس (Pendulum) الثقافي في الاتجاه المعاكس: فما يسمى «العصر الجديد» (الذي يمثّل في الواقع عودة العصر القديم) هو قوة اجتماعية مستهان بها كثيراً في أستراليا، وهو حركة تأليه الأمومة التي تمثّل انتقالاً تعويضياً في الاتجاه المعاكس إلى المجتمع الأبوي السائد. قال ييتس: «لأننا عبدنا إلهاً واحداً، ستعبد (الحضارة الجديدة) العديد»[16]، ومع إفلاس وإغلاق الحانات الذكورية والكنائس والأديرة ومحلات التزيين في أُستراليا، تظهر مكتبات عصرية و «مراكز توعية» في كل مكان، حيث تقدم للعامة مجالاً واسعاً من العلوم والآداب غير المسيحية وغير الأبوية المقصورة على فئة قليلة ـ مثل علم التنجيم وقراءة الغيب والنظام الصيني القديم للرجم بالغيب (I Ching)(*) والفلسفة البوذية في العاقبة الحتميّة (Karma Sutra)(**) والجنس المقدس وطب الأعشاب والمعالجة بالطبيعة والتأمل ورياضة اليوغا والتدليك النفسي والتواصل والوثنية المحدثة والمسحور وطرق الدفاع عن النفس والتقمّص والديانات والفلسفات الشرقية والمطالب المنشودة للأميركي الأصلي وروحانية الإلاهة. تُقدّر قيم الحب والروح والجسد باحترام كبير، بينما يُنظر إلى العقل والفكر بكثير من الريبة في هذا الإرث الثقافي الناشىء ضمن ثقافات أخرى، فتحذير بكمينستر فولر Buckminster Fuller بأننا «نفقد عقلنا ونعود إلى رشدنا» يصف جوهر إيديولوجية العصر الجديد، «فالعصر الجديد» رديف اجتماعي وسياسي لأبي الهول الوهمي الذي يبرز في الوقت

(15) See David Miller: **The New Polytheism**, Dallas: Spring Publications, 1981.

(16) Yeats: in Allison ed., **The Norton Anthology of Poetry**, New York: W.W. Norton, 1983, p. 883.

(*) يتألف هذا النظام من مجموعة من الرموز: 8 أشكال مؤلفة من ثلاثة خطوط و64 شكلاً سداسياً بالإضافة إلى النص.

(**) المفهوم البوذي لنوعية الأفعال بما فيها الحسن والسيء، حيث يحدد الوضع المستقبلي لكافة الكائنات الواعية.

الذي تبدأ فيه الأبوية بالانحسار. على غرار أبي الهول، يتصف العصر الجديد بأنه حسي ومرعب ولا يسبر غوره، حيث ينذر بعودة السرّ النسوي إلى عالم المجتمع الأبوي الجاف.

نحن اليوم نقف بين عالمين: النظام الأبوي القديم والانفجار «الجديد» لعلوم وأسرار غير رسمية قديمة. العالم «القديم» أوروبي المركز وللاستراليين والبريطانيين، بينما العالم «الجديد» آسيوي وشرق أوسطي مستوحى من الثقافات الأصلية عبر العالم. يكمن التحدي للاستراليين في محاولة دمج العالمين: هذا لا يعني الالتصاق المخيف بالقديم ولا التخلي عن القديم إكراماً للجديد، بل إيجاد توازن جديد ـ أي مرحلة جديدة من التوازن الثقافي والشخصي. لدينا في المجتمع المعاصر تجاوزات وتسلّط المؤسسات الأبوية من جهة، وتجاوزات وانغماسات الثقافة الأمومية من جهة أخرى، فالأمر متروك للفرد لإتمام مساره الأساسي بين هذين الحدّين، طالما أن «الوجود الفردي» يعني بالتعريف إيجاد طريق جديد وعدم الاستغراق أو الاندماج بالحركات الجماهيرية أو بالشعب ككل. ينطوي إيجاد طريق جديد على الانسلاخ والعزلة، وعلاوة على ذلك، قبول الخلاف النفسي بين الأجزاء المتنازعة في الكل النفسي. من المؤكد أن المجتمع الأسترالي سيواجه كثيراً من النزاع في المستقبل، في الوقت الذي تشترك فيه قيم ومواقف النسوي الأساسي في معركة ملحميّة ضد المسيطرين على الثقافة الأبوية، ويكمن الخطر الشديد في المجتمع الأسترالي في ميله إلى الحَرْفِيَّة وكونه غير مصقول روحياً (في الواقع، لا نملك مفهوماً «للقوى الكونية»، مثل المبادىء الصينية الفعالة التي تؤثّر على القدر (Ying Yang)(*) بالارتباط الشديد «للذكوري» و «للنسوي» بالرجال والنساء، حيث تتحول معركة القوى النموذجية إلى حرب جنس (من حيث الذكورة والأنوثة). يستغل الصحفيون هذا التحرر لقيمته المثيرة ويمكن سماع قلة من الأصوات المنادية بأن «النسوي» و «الذكوري» مبدءان رمزيان في داخل كل منا، حيث يتطلبان تعديلات محنّكة ومعقّدة وصعبة من قبل الرجال والنساء على حد سواء.

فوضى مابعد الحداثة و «المقدرة السلبية»

شعر الفنانون الإبداعيون في ما يدعى بحقبة «الحداثة» أنهم سكنوا أرضاً روحانية قاحلة تحوّلت فيها الديانات التقليدية إلى «كومة صور مهشّمة» (إليوت، Eliot)، ولم تلق فيها الروح البشرية أية تغذية أو عناية، حيث عانى الفرد المعاصر من إحساس مخيف بالعزلة واليأس وبإدراك للانقطاع الهائل عن الماضي. تلك كانت حقبة «موت الإله» عند

(*) المبدءان المتناقضان المؤثّران على القدر في الدين والفلسفة الصينية: الاول سالب ونسوي ومظلم والثاني موجب وذكور ونيِّر.

نيتشه وهاردي (Hardy) وييتس والوجودية.

نجد انفسنا في حقبة مابعد الحداثة في حالة روحية ـ نفسية مختلفة كثيراً وبوجود مجموعة جديدة من المشاكل والتحديات، فالنفس، شأنها شأن الطبيعة، تمقت الفراغ، ورحّب الفراغ الذي خلّفه انحسار المسيطرين الأبويين بدخول مجموعة من الصور الدينية والأساسية إلى الروح. تعزز وتزامن هذا «الإغراق» الميتافيزيقي مع التطورات والانفجارات الهائلة للتكنولوجيا المعاصرة التي وفّرت بوساطة «طريقها الإعلامي» ونتاجها التجاري كل بدعة وتقليد ديني أو علم الكون المعروف للتاريخ البشري. أعداد لا تُحصى من الأنظمة الرمزية والأسطورية في المجتمع مطروحة للبيع في سوبر ماركت (Supermarket) العصر الجديد، بينما نهاجم من الداخل أيضاً ـ من اللاشعور ـ بصيغ غريبة وصور مغايرة. تشبه روحانية مابعد الحداثة هيروشيما (Hiroshima) عقب القنبلة الذرية: تنشأ حياة جديدة من حطام النظام الثقافي الجديد وتنبثق نباتات جديدة غريبة وأصناف غريبة جداً من بين الأنقاض وتتجه نحو الشمس.

فهذه الصور ليست «مجموعة الصور المهشّمة» في **الأرض اليباب The Waste Land** عند (T.S. Eliot)، بل محمّلة بالطاقة النفسية والمعنى الديني. أدى كون هذه الصور الجديدة مقنِعة للغاية ومجسّدة لقوى الطبيعة إلى نشوء وانتشار العديد من البدع الدينية الجديدة في العالم الغربي، فلم تنشأ البدع لأن الجنون أصاب الناس أو لأن العالم انتهى والناس أقل ذكاء مما كانوا عليه (رأي ذو رواج مذهل)، بل لأن جوانب من الروح الحية غزت قلوبهم ولم تعد حياتهم نفسها أبداً. علينا استيعاب الظواهر الدينية وليس مجرد نقدها من موقع التفوّق الفكري والعجرفة الأبوية. بينما تتغلغل النسوية السياسية في الجامعة والمؤسسات الاجتماعية الرئيسة، يتغلغل نوع من «النسوية الروحية» في الشوارع والمجتمع، حيث تروّج الحكمة السرية للنسوية الأساسية وللإلاهات المفقودة وللعلوم والآداب الأمومية المنسية. من المؤسف للغاية أن الصلة بين هذين النوعين من النسوية مجهولة وغير معتبرة، فإن لم يتنبّه المجتمع ككل إلى مطالب النسوية الروحية الصاعدة ستُمطَر بوابل من البدع والإيديولوجيات والحركات الغريبة الأطوار، فالأمر الذي تفشل الثقافة الرسمية في إدراكه أو دمجه سيجبر الثقافة المعاكسة غير الرسمية على العمل بطرق متطرّفة وتعصبية غالباً.

المشكلة اليوم ليست، كما هو الحال في المرحلة الوجودية، بوجود أو عدم وجود نظام مقدّس، فنحن نعيش في بحر حقيقي من الصور المقدسة والرغبات الدينية الشديدة والقناعات الميتافيزيقية الراسخة. تكمن مشكلتنا الحقيقية في كيفية تبجيل وتقدير وخدمة القدسية الجديدة بشكل لائق، حيث إننا غير منسجمين مع أنفسنا ومضطربين وأميين أمام المقدس، ونفتقر على نحو خطير لعلم كوني ولنظام وللاهوت مابعد الحداثة وذلك لفهم المقدس وتأثيره علينا. لسوء الحظ، لكلمة «مابعد الحداثة» نفسها طابع أكاديمي، حيث يُنظر إلى نفاذ البصيرة التي تقدّمها فلسفة مابعد الحداثة

على أنها أكاديمية حصراً وغير متوفرة للمجتمع الأشمل. يمكن للجامعة أن تطلع العامة على أسباب نهاية «الحداثة» وبداية «مابعد الحداثة»، ولكن حتى الآن أخفقت في إيصال هذه الرسالة، وهذا نتيجة مباشرة للحصر والإطناب الأكاديميين.

أعتقد أن التحدي الأساسي اليوم يكمن في البقاء مع الشك والفوضى والارتباك وعدم الحاجة أو التوقّع لأجوبة جازمة ولأنظمة كاملة أو لنماذج واضحة. علينا محاولة تحرّي ارتباكنا ودراسته وعدم الاندفاع بعجلة نحو الماضي سعياً وراء نظام عفى عنه الزمان، ولا التحرّك جانبياً لاعتناق (غالباً بطرق غير نقدية أو رومانسية) أنظمة الثقافات الدينية الأخرى. علينا تعلُّم البقاء في الحاضر بحالة ما دعاه كيتس (Keats) «بالمقدرة السلبية»، وهي القدرة على العيش في ارتيابات وشكوك وأسرار دون أي سعي مثير وراء الحقيقة أو الصواب. نحن نعيش في «زمن ممتع»، ويكمن الإغراء في الرغبة دوماً أن تكون الأمور على عكس ما هي عليه وأن الحياة كانت أبسط وأقل توتّراً. يتطلّب هذا الزمن جرأة وانفتاحاً معيَّنين طالما أننا مجبرون على العيش على نحو جامح للاستفسار والشك كثيراً وللسير فوق أنقاض الماضي، حيث نواجه في الوقت نفسه الطاقات الخام وغير المصقولة التي ستشكّل الأسس الرئيسة لرؤية عالمية مستقبلية. نحن مدينون للمستقبل في التحقّق من أن الثقافة تتقدم بطريقة حقيقية وأن «الحلول» المكتشفة لأزمتنا الروحية ليست زائفة أو غير منطقية.